د/ حاج علي كمال

الفلسفة الغربية الحديثة:  
تمهيد:

تميز العصر الحديث في أوروبا بتحولات جذرية متعددة المناحي، يمكن أن نجملها في تراجع سلطة الكنيسة في مقابل تراجع العلم. وهذا ما يجعل هذه الفترة مرحلة تغيير حقيقي، وعادة ما يربط مؤرخوا الفلسفة بداية الفلسفة الحديثة بديكارت والذي لُقّب "أب الفلسفة الحديثة"، حيث مثّلت فلسفته نقطة تحول جذري على مستوى المفهوم والمنهج. وعليه نتساءل ما هي الخصائص العامة التي تميز هذه الفلسفة؟  
حدثت مرحلة انتقال كبرى من مرحلة العصور الوسطى إلى مرحلة ظهور الفلسفة الغربية الحديثة، وتعتبر هذه الأخيرة تأسيس لعهد جديد وإحداث قطيعة مع الماضي، من خلال ظهور جهاز مفاهيمي جديد، و كذا التحول على المستوى الإشكاليات الكبرى المناقشة والاهتمامات الفلسفية. فقد تم إعطاء الأولوية في الفلسفة الحديثة لمبحث المعرفة على مبحث الوجود، الذي كانت له الأولوية في العصور السابقة. وتفطن العقل الغربي في العصر الحديث إلى خطورة (أهمية) المنهج الموصل إلى الحقيقة واليقين.  
والإشكال الرئيسي في الفلسفة الحديثة هو إشكال معرفي بامتياز وليس أنطولوجي كما ظهر في النقاشات السابقة لهذه المرحلة، فالإشكال المعرفي تمثّل في التساؤل عن إمكانية وحدود المعرفة البشرية، وعن الكيفية التي تكون بها هذه المعرفة ممكنة. وهذا ما ظهر بوضوح في فكر كل من ديكارت وفرانسيس بيكون ومن تبعهم من الفلاسفة المحدثين.  
وقد عرفت الفلسفة الحديثة بظهور النزعة الإنسانية التي أعادت الاعتبار للعقل البشري، و آمنت بقدرته على فهم العالم و السيطرة على الطبيعة. وارتبط ظهور الأنسنة أو المذهب الإنساني بحركة الإصلاح الديني، وعصر النهضة في أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حيث بدأ التحول من الدين إلى العلم، ومن الله إلى الإنسان.

"كان من آثار المذهب الإنساني سلخ الفلسفة عن الدين، أو بعبارة أدق العمل على إقامة الفلسفة خصيمة الدين، والحملة على الفلسفة المدرسية بالتهكم على لغتها وبحوثها وطريقة استدلالها، بل الحملة علة العصر الوسيط في جميع مظاهره...وتسرب المذهب الإنساني إلى المسيحية نفسها، وأخذ يعمل على تقويضها من الداخل، فما كانت البروتستانتية في البدء إلا احتجاجا على الغفرانات ودعوى للإصلاح في الإدارة الكنسية والعبادة، ثم زعمت أن الدين يقوم على الفحص الحر أي الفهم الخاص للكتاب المقدس، وعلى التجربة الشخصية، بغير حاجة إلى سلطة تحددها معاني الكتاب[[1]](#footnote-1).   
و هكذا أصبح الاعتقاد بأن العالم لم يعد غريبا، و بأن الطبيعة بإمكانها البوح بكل أسرارها، فقط يجب أن تتوفر الوسائل اللازمة لذلك.  
تميزت الفلسفة الغربية الحديثة بتطور العلوم، وكان العامل الحاسم في هذا التطور هو ظهور المنهج التجريبي واستقلال هذه العلوم بطريقة خاصة تفرضها طبيعة الظاهرة المدروسة.

وعرفت أوروبا في هذه المرحلة ما يسمى "بالنهضة"، أي النهضة على كافة المستويات (فكرية، ثقافية، سياسية، اجتماعية..)، "ونستطيع أن نردها إلى ُإثنين: الفردية في الأدب والدين والسياسة، والعناية البالغة بالعلم الآلي وتطبيقاته الرامية إلى توسيع سلطات الإنسان على الطبيعة والزيادة في رخائه، وسيكون لكل هذا صدى قوي في الفلسفة"[[2]](#footnote-2).

خصائص الفكر الفلسفي الحديث:  
كان للفلسفة الحديثة خصائص مميزات تميزت بها عن غيرها، نود هنا أن نلمح سريعاً لشيء من تلك الخصائص، ولكن قبل الخوض في المراد أشير إلى أنه من الصعب تحديد فكرٍ معينٍ تحديداً دقيقاً، يقول الدكتور بيصار في ذلك: (كانت محاولات المؤرخين للفكر الإنساني شاقة ومضنية، بل وبالغة غاية التعقيد.  
فكلما حاولوا أن يحددوا خصائصه ويفصلوا مميزاته، في كل طور من أطواره، أمعنوا في الغموض، وأوقعوا في الحيرة.  
و بدت طلائع الفلسفة الحديثة التي كانت في أول عهدها اميل الي الإتجاه نحو الطبيعة،و أنصرف الفكر الحديث بدافع الروح اليونانية الي الطبيعة و علومها ينظر فيها نظراً غير متحيزاً و قويت الرغبة في تعرف العالم الجديد،هذا و لم تكن الفلسفة الحديثة طبيعية فحسب بل كانت فردية كذلك ،فقد كان من خواصها الفرد و تحريره من رق رجال الكنيسة،وكان من أغراض الحركة الحديثة تقرير حق الفرد في الحكم علي الأشياء،فلكل فرد أن يبحث و ينتقد غير مقيد في ذلك بأية سلطة خارجية،ومعني هذا كله أن النهضة الفكرية قررت أن يكون لعقل الفرد القول الفاصل و علي هذا الأساس قامت الفلسفة الحديثة و كان أول من حمل لوائها بيكون و ديكارت،و أتفق هذان الفيلسوفان في الغرض و لكنهما أختلفا في الوسيلة المؤدية اليه،فبينما يذهب بيكون الي أن المصدر الوحيد للحقائق هو ملاحظة العالم الخارجي و تجربة الظواهر إذا بديكارت يعترف بأن يكون العقل معيناً تتدفق منه المعرفة الي جانب العالم الخارجي الذي ينتقل الينا علمه بالحواس ،وكان بذلك بيكون مؤسس الفلسفة التجريبية كما كان ديكارت واضع الأساس لفلسفة عقلية حديثة زكي نجيب محمود ( 1959 :49 ).

لقد خرجت أوروبا من العصر الوسیط، مقتحمة عالما جدیدا حیث قطعت الصلة بالخرافة والجهل والظلام واتجهت نحو عقلانیة جدیدة. ولقد كانت فلسفة الأنوار بأشعتها، مصرة على تحطیم المعتقدات والتقالید التي تستند إلیها السلطة، والسعي الحثیث نحو تحریر العقل من نیر الوهم والخرافة المتصلة بالدین والعمل على فهم العالم فهما صحیحا حتى تتحقق السیادة للعقل، یقول جورج بولیتز ر:"لقد كانت فلسفة التنویر أعظم مشروع عقلاني دیموقراطي عرفته البشریة، لتحویل المجتمع عن طریق الأفكار. " . هذه الأفكار التي انطلقت ـ كما هو معروف تاریخیاـ من فرنسا مع مونتیسكیو(1689-1755 (و فولتیر(1694 -1778 (و دیدرو(1713-1784 (وغیرهم لتنتشر في ألمانیا مع كانط، وفي انغلترا مع لوك(1632 -1704 (و هیوم(1711-1776،( وغیرهما.  
1- النزعة العلمية Scientific:  
و نذكر هنا الخصائص التي تميز بها الفكر الفلسفي الحديث لاسيما بعد أن انفصل تدريجياً عن سلطة الدين فلم تعد الفلسفة مقيدة بقيود الكنيسة أو خادمة لها بل عبرت عن الواقع العلمي التجريبي في سائر المجالات إذ تجرأ الفلاسفة علي الواقع الطبيعي فبينما أن تفكير العالم يتميز بالموضوعية الخاصة بالبحث العلمي يحاول سبر أغوار الواقع بتحري جزئياته و تفصيلاته المختلفة ،ولا يستطيع أن يتدرج من هذه الجزئيات الي تعميمات شكلية،نجد أن الفيلسوف يقوم بجمع النتائج الدقيقة للأبحاث العلمية و يكون منها نظريات و تصورات و قيم عن العالم في المجالات الفنية و الخلقية و الدينية بحيث لا تتعارض هذه النظريات مع نتائج البحث العلمي أو تخل بمبادئه ،فالفلسفة في العصر الحديث أقتربت بجرأة من الواقع و هبطت من سماء المثل الي عالم المادة و الإنسان فتلمست مشاكله و سعت لخدمته و كونت نظريات العامة بالإتفاق مع ما توصل اليه العلم فجاز لنا أ نميزها بالطابع العلمي.  
2- الطابع الفردي Individual:  
الفكر الفلسفي الحديث تميز بالنزعة الفردية فالفيلسوف يحاول جاهداً التوصل الي آرائه و نظرياته بذاته ليتقصي الوقائع و يضع الفروض و يجري التجارب حتي يصل الي النتائج في غير خضوع لهدف محدد أو خطة مرسومة للحكومة أو السلطة الكنيسية ،فالفيلسوف الحديث يعمل في حرية شخصية في فردية و أصالة تتميز بهما الفلسفة الحديثة التي أكدت ذاتية الفرد و سلطت الأضواء علي شخصيته وأهمية وجوده و فكره  
سمة الدولية International :  
تميزت الفلسفة الحديثة بسمة الدولية علي عكس الفلسفات القديمة التي كانت تعبر عن فكر شعوبها و قومياتها،بينما الفكر الفلسفي الحديث قد جمع بين كل هذه الفلسفات و نسقها و قدمها للإنسانية تراثاً عاماً تعرفه و تستفيد منه سائر الشعوب ، فالفلسفة الحديثة قد قدمت للإنسانية تراثاً محدداً منظماً جمع بين القديم و الحديث تتداوله جامعات العالم و تحفظه مكتباتها بإعتباره ملكاً للإنسانية و ليس ملكاً لدوله أو قومية،ولا يعني تدويل الفكر الفلسفي علي مستوي العالم غض النظر عن الفكر الكلاسيكي و عن محاولة تجديده فالكثير من الدراسات الفلسفية تقدم أبحاث موضوعية عن الفلسفة القديمة في ضوء التيارات الفلسفية الحديثة0راوية عباس (1987 :17-22)  
مميزات الفلسفة الغربية الحديثة:  
تميزت الفلسفة الحديثة بما يلي:  
1- حرية الفكر:  
بحيث لا يؤمن المفكر بأي رأي، إلا بعد إمعان الفكر والنظر، ومن هنا استقلت الفلسفة عن الدين، فوجدت فلسفة الحادية، وأخرى تتحدث عن المسيحية لكن على أنها مجرد عاطفة دينية فقط، وثالثة تشيد بالعلم الآلي.  
2- اصطناع منهج جديد:  
بحيث يوصل إلى المعرفة الصحيحة.  
3- اتجاه الفلسفة إلى احتواء جميع العلوم:  
هذا مع ملاحظة أن هذه الصفة الثالثة، قد تغيرت منذ بدأت العلوم تتقلص عن شجرة الفلسفة.  
4- العناية بالإنسان:  
في كل ما يملأ وجوده الواقعي في عالمي الأشياء والأغيار (الأشخاص الآخرين).  
وتتمثل هذه الفلسفة في بيكون وديكارت، إلا أن بيكون صاحب منهج تجريبي، موصل إلى معرفة العلوم الطبيعية، بينما ديكارت صاحب منهج عقلي رياضي يقوم على الوضوح، ويصلح للبحث في الفلسفة العامة.  
إتجاهات الفلسفة الحديثة:  
أولاً الاتجاه العقلاني:

والواقع أن اللحظة الدیكارتیة، تمثل لحظة" التحول الحاسم" للعقل في فهم وإدراك العالم فهما وإدراكا جدیدین كل الجدة، ولعل الإسهام الدیكارتي كان على صعید "المنهج" الذي جعل فلسفته، فلسفة عقلانیة في الصمیم، انصهرت فیها كل أوجه الثورة على القدیم والموروث، لتبشر بمیلاد فلسفة حدیثة، یقول أحد المفكرین:"إن دیكارت هو فعلا، وبكل تأكید المؤسس الأكبر لفكرة المنهج، التي یرتكز علیها المشروع العلمي للأزمنة الحدیثة، بل للحداثة ذاتها،...إن المعرفة الحدیثة تعد بتناول كل شيء من جدید، وبشكل جدید انطلاقا من یقین لا طعن فیه، یقین متأكد من فكره الخاص، إنني أنا أمارس عملیة التفكیر لا یمكنني أن اشك في كوني أفكر ،فأنا شيء یفكر، وأنا لست في المقام الأول إلا هذا الشيء الذي یمارس التفكیر". إن عبقریة دیكارت تكمن أیضا في إیمانه بتضمن القول الفلسفي للقول العلمي، وهو ما مكنه من صیاغة القول العلمي صیاغة فلسفیة.[[3]](#footnote-3)  
ثانياً الإتجاه التجريبى:  
فى ذلك الوقت كان الفلاسفة الإنجليز فى الجزر البريطانية "حسيين وتجريبيين وتحليليين فى مجال المعرفة" وكانوا يعملون للواقع ألف حساب.  
لقد خضع الفكر الإنجليزى للواقع وسلم له العقل تسليماً وكانت مهمة هؤلاء المفكريين هى رفض كل ما يتصف بالضرورة والثبات وأصبحت الفلسفة لديهم مجرد تحليل للأفكار وتفتيت للواقع.  
لا شيء سوى الإحساس والخبرة الحسية، أما العقل فوظيفته تنقية هذه الخبرة وتصفية التجربة الإنسانية لمعرفة مغزاها ومعناها.  
مما سبق نستطيع أن نوجز في عجالة سريعة أهم السمات التي تتميز بها الفلسفة الحديثة، فالفكر الحديث في تصورنا يتمثل فى السعى وراء هدفين أساسيين:   
1- النهوض بالعلم واعتباره الوسيلة الفعالة لمعرفة حقيقة العالم والأشياء.  
2- وضع أصول فلسفة جديدة تحل محل فلسفة العصور الوسطى التي كانت في خدمة الدين.  
وانطلاقا من هذا تغيرت نظرة الإنسان إلى الطبيعة بفضل تقدم العلم الحديث، وبدلاً من خضوع الإنسان للطبيعة وجوداً وفكراً - كما ظن القدماء - مثل أرسطو، أصبح الإنسان الحديث يسعى إلى أن يكون بالعلم سيداً أو مالكاً للطبيعة ،ولهذا فالفلسفة الحديثة يجب أن تختلف عن الفلسفة القديمة من ناحية، وفلسفة العصر الوسيط من ناحية أخرى و في هذا الجو الفكري ولد أبو الفلسفة الحديثة أو الرائد الأول لهذه الفلسفة رينيه ديكارت.

الفكر النقدي أو الفلسفة النقدية :  
وهذه الفلسفة أسسها ( كانت )، وهي معروفة قديما ولكنها في هذا العصر أي عصر التنوير اتخذت منهجا. وللنقد معانٍ عدة :  
-النقد بمقياس المطابقة وهو النقد السائد ومعناه : نقد المعلومة الجديدة بما يقابلها في ذهنك . ولذا كان النقد الصحيح هو النقد المبني على الحقيقة وليس المبني على القديم . ولذا تجد كل تيار فكري يظهر ينقد الآخر من خلال فكره هو ، فكانت جميعها من هذا النوع . ومشكلته الأساسية ما هي المعلومة التي تقيس من خلالها . ولله الحمد ففي ديننا عندنا المعيار الذي نقيس به الأمور. واختلفت التيارات العقلية في المسألة النقدية على طوائف :  
1-العقليون جعلوا معيار النقد هو : العقل.  
2-التجريبيون جعلوا معيار النقد هو : الحس .  
-وأما الفلسفة النقدية فهي بحث في ( قدرات العقل ) وأعرف إلى أي حد يستطيع العقل معرفة الحقائق الموجودة حول الكون والإنسان والطبيعة. واشتغل بهذه القضية سنين طويلة وأخرج ثلاث كتب شهيرة هي ( نقد العقل العملي ) و ( نقد العقل المحض ) و ( نقد ملكة الحكم ).

وكانت الفلسفة النقدیة لكانط تتویجا لتكامل شروط القول العلمي في عصره، لقد تجسدت عبقریة كانط ،فیما نعتقد، في هذا التوفیق في التولیف بین العقل والتجربة، بحیث ان المعرفة تتولد من خلالهما معا.لقد تفحص موروث أسلافه ومعاصریه من التجریبیین، كما تمعن في موروث أسلافه ومعاصریه من الفلاسفة العقلانیین، ووجد أن المعرفة هي التجریب متوقف على المصادقة الضروریة والدائمة للعقل، فالتجربة من خلق العقل، وكل معطیات الحس یتعذر إدراكها إن لم تكن تترتب وفق إطارات (مقولات) هي من صنع العقل، وتلك هي خلاصة جهده النقدي في الفلسفة، یقول إمیل بوترو عن المذهب الكانطي أنه:"یبدو نتیجة، لهذه الدراما الفلسفیة الكبیرة القائمة بین العقلیین والتجریبیین،إبان القرنین السابع عشر والثامن عشر."[[4]](#footnote-4) .

الإتجاه المثالي:  
أصبح الإنسان فى العصر الحديث بذاتيته وفرديته محور البحث الفلسفى، وأوضح الفلاسفة المحدثون أن العقل هو القوة المشتركة بين الناس جميعاً، ومن أجل ذلك كانوا ينظرون إلى الإنسان نظرة عامة وكلية وشاملة.وتلك هى العقلانية الحديثة التى كانت تختلف عن مثالية أفلاطون التى كانت تقول بوجود عالم للمثل ثم ظهرت الفلسفة الجدلية مع هيجل كمحاولة للتوفيق بين كلية الوجود والواقع أو المطلق من ناحية، وكلية الإنسان من ناحية أخرى.  
كما أنه وضع التناقص فى قلب الوجود ومثل هيرقليطس الذى جعل العقل قانون الوجود، جعل هيجل الروح أو المطلق ماهية الوجود أى صورته وحقيقته.  
إن التوسع الجدلى معناه الإختفاء والظهور، العدم والوجود، الموت والحياة، تماماً كما تختفى البراعم عندما تتفتح الأزهار،ولكن الفكر الغربى الحديث قد أغرق فى المثالية حتى وإن كان يرى فيها صورة الحقيقة، فالحقيقة فى نظره صورة لا مادة، عقل بلا إحساس أو خيال، هذا لأن الفكر قد تجمد فى الصورة والتصورات العقلية وتجاوز ذاته الفردية إلى الذات الكلية، وكان لا بد وأن يشعر الإنسان الذى يتجاوز العالم بالغربة فى هذا العالم هكذا تمثلت العقلانية الغربية عند أقطابها، من أمثال ديكارت وكانط وهيجل، فكانت الذات بمعناها الكلى والعام بل والمطلق أيضاً هى مصدر كل علم ومعرفة.

Haut du formulaire

Bas du formulaire

1. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط5، دار المعارف القاهرة،1986، ص ص(06، 07). [↑](#footnote-ref-1)
2. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص08. [↑](#footnote-ref-2)
3. (جورج بولیتزر: فلسفة الأنوار،تعریب جورج طرابیشي،دار الطلیعة ،بیروت،لبنان،ط 1997،2 ،ص04 [↑](#footnote-ref-3)
4. . إمیل بوترو:فلسفة كانط،، تعریب عثمان أمین،الھیئة المصریة العامة للكتاب، ط1 ،1972 ،ص18. [↑](#footnote-ref-4)